

مَدِ الْجَمْعُ لِيَعْلَمَ الْعَرَبِي

الجزء ٨ آب سنة ١٩٢١ م الموافق ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ المجلد ١

بماذا يكون انتظام المجتمع الانساني

القيت من قبل حضرة الاستاذ صاحب الامضاء في بيوت المجتمع العلمي في ٨

تموز سنة ٩٢١

ايها السادة الكرام والاخوة الاعزاء والابناء البررة !

قيض لي حين الحظ ان اقف هذا الموقف بينكم مذكراً لا مرشداً اذ فيكم من رئيس الجمع الفاضل وزملائي الافاضل من لا استغني عن الاقتباس من انوار علماء فاضرع الى آدابكم ومكارمكم ان تسبلوا ذيل الصفع عما سترونه من هفوات دعا اليها تشعب مسائل الموضوع الذي توحيته (وما تشعب تصعب) واستدعاؤه بحثاً اكثر ووقتاً اوسع والله اسأل وبنبيه الاكرم صلى الله عليه وسلم اتوسل ان يأخذ بيدنا جميعاً لانهاض هذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز ان صدقت النيات وانجرت القلوب وعرفنا الحق لاهله ووضعنا كل شيء في محله .

ان الله تعالى خلق الخلق محناجين وفطرهم عاجزين ليكون منهم رداً بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانة به صفة قائمة في جوهره قال تعالى (وخلقنا الانسان ضعيفاً) يعني عن الصبر عما هو مفعر اليه واحتمال ما هو عنه عاجز .

ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه الى اشياء استغني عنها غيره وهي الملابس والمسكن اللذان استغني عنهما اكثر الحيوانات ان لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الانسان الا بعد اجهاد عدة صناعات فيه انفسهم ومزاولة عدة صناعات قيل الانسان مدني بالطبع اي انه لا يقوم بحاجياته بنفسه بل يحتاج الى مدينة اي مجتمع لتوفر فيه حاجياته وقد جعله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز مانعين له من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر قال تعالى (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقال عنه (انه كان ظالماً جهولاً) (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) .

ثم انه جل وعلا جعل لنيل الانسان حاجته اسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وارشده اليها بالفطنة وانعم الله على الناس بما اودعه في الارض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الارض جميعاً فوجب ان يكون سكنها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة والمودة والمعاونة واسداء المعروف واحتمال الاذى فانهم ان لم يكونوا كذلك ضاع ما اودعوه من تلك الخيرات او اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وفقدت اللفة والانتظام وهما زينة للمجتمع الانساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ثم اودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والاباء وحب الاثرة وهي مراكب جماحة ان لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسوله الكرام لمحافظة هذا المجتمع من الفساد والاختلال فكانت زبدة ما امرت به من اساسيات الانتظام المحافظة على خمسة اشياء واصلاحها وهي (١) الدين (٢) النفوس (٣) العقول (٤) الانساب (٥) الاموال فافساد الدين بالكفر والبدع والاهواء المضلة . وافساد النفوس بالقتل او قطع او تعطيل بعض الاعضاء او منافعها . وافساد العقول بشرب المسكرات او تضليل الغير على ارتكاب ما يمس دينه او شرفه . وافساد الانساب بالاقدام على الزنا فانه يضيعها . او بعقوب الوالدين وقطع الارحام فانهم يضيحان ثمرتها من التناصر والقواد . وافساد الاموال بالغصب والسرقمة والرشوة وكذا اخذها بالغش واصناف الخيل

وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كأنواع السخرة وعدم تأدية الاجير اجره فان المنفعة متقومة .

ومن قارن بين قول التوراة (انا الرب الهك الذي اخرجك من ارض مصر لا يكن لك آله اخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء مما تحت الارض لا تسجد لهم ولا تعبدن لا ننطق باسم الرب الهك باطلاً اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض لا تقتل لا تزني لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا تشته بيت قريبك الخ) . وبين قوله تعالى في القرآن (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واباهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن واوفوا الكيل والميزان بالقسط واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

علم ان اساس الاديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فكما علم ان للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي ان يعلم ان لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولنبين ذلك اجمالاً لان تفصيله يحتاج الى مجلدات اذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما صلاح المجتمع وانتظامه باسمه فلدى الاستقرار وجد في ستة اشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر (٣) عدل شامل (٤) امن عام (٥) خصب دائم (٦) امل فسيح أولها الدين الحقيقي لانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير زاجراً للضنائير رقيباً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل اليها بغير الدين ولا تعيش امة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل ولا يمكن ان تبنى الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقل الشرور واغوى روابط الاجتماع التي قيل انها الدين واللغة والوطن والنسب وانا ازيد عليها المشاكلة في الطباع فلا يصحب الانسان الا شبيهه وان لم يكونا من قبيلي ولا بلده

لكن تلك الروابط لا تنتظم بدونه وهو اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتصرف بهم الالهواء ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنته الشرائع والقبيح ما قبيحه، خلافاً لمن حكم العقل في التحسين والتقبيح .

نعم ان العقول قد نفضي باشياء حسنة غير انها لا تهتدي لمعرفة الحسن حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والغالب ان ما يأتي به من عندها لا يجمع عليه نظراً لتفاوت العقول والعجاب كل امرئ برأيه، فتد روى التاريخ ان شون احد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وضع لامته خمس قواعد تضمن الواجبات المتبعة على كل من الآباء والابناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد ان يكون في بعضها مخالفة للشرائع فان من المعمول به عندهم الان انه اذا مات احد الزوجين ألحق به الآخر حرقاً حتى لا يفترقا . ثم وجد في تلك الامة كونفوشيوس الحكيم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فجعل النواميس الاساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعية والاب والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الاصلية خمس وهي محبة الانسان لاهله جنسه بدون تمييز بينهم والعدل اي اعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لاحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت في الاديان التي امرنا بها حتى لا نكون للامة الاحالة معاشية واحدة يستري الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها والاستقامة وفسرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اهـ

فان ترى ان حكمه بان تكون الامة حالة معاشية واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة امر لا بد منه بمقتضى نظام الوجود اذ هو من ادل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن (نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم الى الآن حية بين قومه واعليها مدار نظامات الصين ولا بد لكل طالب علم عندهم ان يستظهرها

لينال في الامتحان الشهادة التي تخوله حق الدخول في الوظائف فياحبذا لو تقتدي بهم
الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم انظروا حفظكم الله الى
شرائع ما نوالهندي الذي يمتد فيه الهنود انه الاب العام للبشر وهي منظومة في ٥٣٧٠
بيتاً من الشعر تنقسم الى ١٢ باباً تحتوي على عدة اشياء منها المبادئ التي يجب ان يجري
عليها الفرد والاسرة والمدينة وواجبات الامراء واهل كل من الطبقات المختلفة والنظام
المدني والعسكري ولخص ذلك كله بقاعدتين احدهما تنضي على الامة بخضوع طبقاتها
بعضها لبعض وثانيتها تنضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الامة اربع
طبقات الكهان والعسكر والفلاحون مع التجار والمحترفين مع الاسرى والمغلوبين وجعل
السيادة للطبقات الثلاث الاولى فيحظر عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ثم وجد في القرن
السادس قبل الميلاد رجل يدعى ساكيموني ويلقب ببوذا فنقض هذا الاساس وجاهر
بان الناس امام الشرائع الادبية متساوون وان الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما
يقوم به من الشعائر الدينية وان كل امرئ من اي طبقة كانت يحمل بتقواه وفضله على
النجاة وان للانسان مكملات ستاً وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهارة
وحب الناس والصبر والبراه . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجلين
اما الشرع فلكونه وضعاً الهيكاً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل ايضا على ما قدمناه
ما كان عليه الفلاسفة الاقدمون الذين زعموا ان الرياضة توصل الى درجة النبوة وان
النبوة مكتسبة من الاخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفة تسمى
الكلمية رئيسها انتشيونس ثم تليذه ديوجانس كانت ترى حب اقاربها واخوانها وبغض
غيرهم من سائر الناس وترى التغوط في الطرقات بلاستار فلقبهم الناس بالكلبيين لان
خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديوجانس انه اذ احتاج الانسان الى شيء واخذه فلا
ثريب عليه وكان يرى ان الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح
الاشياء امام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي
لم تستند الى شرع سماوي ولو اردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدينة
من طريق الدين لضاق بنا المجال ويكفي ان منهم الدهريين الذين لم تهدم عقولهم الى

معرفة الصانع ووجوده فحدوده والطبيعيين الذين بحثوا عن افعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هذا ان العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لا بد له من دين يعدل سيره . اما كيفية تعليم الدين الصحيح الذي لبابه الاخلاق الفاضلة فهي عقدة العقدة وبها صالح ما صالح وفسد ما فسد اذ هي الاساس لما نحن بصدده فان كثيراً ممن تصدى لذلك افسد أكثر مما اصلحة وذلك لسببين اولهما انه ادخل في الدين ما ليس منه مما لا يثبت على محك الانتقاد من خرافات لا يقبلها العقل ولا يؤيدها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولما انتقلت الى فضاء ارض المتعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا يزداد نتائجها كلما زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتشيع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقدت حجية قوله وهييات من أوتي سحر هاروت وماروت ان يزيل ما على باذهانهم من خزعبلاته وهنا يجب ان نبين بقليل من الابحاح فساد حال من هذه حالة ، ان من ظن الزهد التمتع عن اكل المشتهى اللذيذ الحلال فقد نطع لان الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال (يا ايها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) والطيبات هي الحلال . واصرح من ذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) فمن فعل ذلك معتقداً انه من الدين فقد ضل واضل وبعضهم يلبس لباساً زرياً نقشفاً ويخشع في مشيته تصنعاً مع ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي كمن ينحط من صلب (اي علو) ورأت عائشة رجلاً متصفاً بهذه الصفة فقالت ما هذا استمجاناً لحالته فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله اهو ازهد من عمر وكان اذا مشي اسرع واذا ضرب اوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فيتصدى للتعليم الذي يحتاجه هو ويتزيا بزي من تزويق لباسه وانقار هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم ان العلم الناقص شر من الجهل التام لانه يدعو صاحبه الى ان يفتي بغير علم حذراً من ان يقال عنه انه جاهل وربما حابى الامراء او الاغنياء فافتتاهم بما يشتهون مما لا يعرفه الدين اذ لم يكن عالماً حقاً حتى يردعه عمله عن زخرف القول ويذكره وهناك سبب آخر وهو عدم العمل

بمقتضيات الدين فالعمل في العلم من موجبات تأثير العلم في المتعلم وقد قيل الواعظ من يعظ بفعله لا بقوله فمتى انتفت هذه الاسباب حصلت ثمرة التعليم وهي الاخلاق الفاضلة ونشأصل في النفس فتكون زاجراً قوياً لها عن ارتكاب ما لا يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لا ترجع الانفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

وانما كان التلقين بهذه المثابة من الاهمية لانه الاكسير الذي تنقلب به الاعيان وتتحول به الاحوال لان الافعال دائماً آثار الافكار والافكار دائماً آثار الكلام فالكلام الواصل الى النفوس ان كان خيراً كانت الافكار خيراً فكانت الافعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الاصل في الاشياء ومبدؤها وهو الذي يأخذ القلوب يميناً وشمالاً . واني لا عجب من قال ان الاخلاق لا تتغير والواقع يدل على خلافه لاننا نشاهد الحيوان الوحشي يخرج عن طبعه بالتهذيب فهذا البازي يصير طوع الانسان بأمره فيأتمر وينهاه فينتهي وهكذا الفرس الجموح او الحرون تبدل صفاتها بالمعالجة ولولا ان ذلك حاصل لما ارسل الله الرسل بالشرائع فيها الامر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الاخلاق حسناً وقبحاً .

و يا حبيذا لواعظي اولوا الامر بمنع دجالي هذه الصنعة اشد من اهتمامهم بمنع الطارقة من دجالي الطب فالضرر هنا اشد لان طيبب الاجسام الجاهل ربما ساعدته المصادفة على شفاء من يطببه اما طيبب العقول فلا شبهة فيه انه يودي بحياة مريضه الادبية ويوصله الى شقاء دائم في الآخرة .

والثاني من الستة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان اي ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتتكف بسطوته الايدي المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما احبوه والقهر لمن عاندوه ما لا ينفكون عنه الايمان قوي وراذع ذي سطوة وهو الذي يحكي الدين والعلم ويدعو بسطوته الى اتباعهما ولذلك قيل ما يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن وقال تعالى (لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله) فهو القائم على صون الاخلاق ان نفسد والمحافظة على صلاحها .

والثالث من الستة عدل شامل يدعو الى الافسة وبعث على الطاعة ونمو به الاموال ويكثر به النسل ويعم به الامن المالك والمملوك فقد قال الهرمزان لعمر بن الخطاب لما رآه نائماً في المسجد بلا غطاء ولا وطاء فضلاً عن الحرس والحجاب: عدلت فأمنت فمئت. وامهات العدل ثلاث عدل الرئيس مع من في حوزته ويكون بعدهم اعنائهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع حاكمها والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء وعدل الانسان مع اكفائه ويكون بترك الاستطالة عليهم ومجانبة الادلال وكف الاذى فهذه الامور ان لم تكن في الاكفاء تقاطعوا تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا والعدل لازم للانسان ايضاً في نفسه بان يحافظ على صحته بعدم تعاطي ما يضعفها ويعمل صالحاً حتى لا يكون معذباً في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها اذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائله بان يقوم لها بما كانت به الشرائع من سد حاجاتها وان يسوي بين افرادها في المعاملة، الا ترون قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله يأمركم ان تعدلوا بين اولادكم حتى في القبل) بل العدل لازم في كل اسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والامارة الذي منه الرفق بالحيوان الاعجم ولو اردنا بيان كيفية العدل فيها لما اتسع له الوقت واجمع شيء في تعريف العدل هو ان ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم الا ما يجب ان يفعلوا معه ومن العدل ايضاً معرفة الحق لاهله فان دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع اعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يهتمها او تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها او لم يعرف لذي الفضل فضله ولم يحله في المنزلة التي يستحقها واخذ في انتقاصه او ادعى انه احق بشيء من صاحبه كان جاهلاً او حاسداً او غاشاً وكلها من دواعي الفساد. وفي الحديث (اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة) قيل وكيف اضاعتها قال بتوسيد الامر الى غير اهله. وسأل رجل علي بن ابي طالب رضي الله عنه لم انتقضت الامة عليك ولم تنتقض على ابي بكر وعمر فقال له لما كنت انا من رعيتهما انتظم الامر ولما صرت انت وامثالك من ريعتي صار الامر الى ما نقول اي ان علياً ومن كان معه زمن اماره الخليفين كانوا يعرفون حق العمرين اما رعية علي فكان فيهم من لم يعترف له بالحق فلماذا انتقض امر الامة ووقع ذلك البلاء العظيم ويتعلق بالعدل ايضاً امور خاصة

كون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال ما جاوزه فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فانها هيئات بين خلتين ناقصتين انفعال الخير توسط بين رذيلتين كاشجاعة فانها بين التهور والجبن والحلم فانه بين افراط لغضب وعدمه كما اوضح ذلك علماء تربية النفس بما ليس هذا موضعه .

والرابع من الستة أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البري بأنس به الضعيف .

والخامس خصب فتسع به النفوس ويشترك فيه الغني والفقير فيقل فيهم الحسد ينتفي عنهم التباغض وتكثر المواساة والتواصل لان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء ان اقترن بعلم يهذب صاحبه ويعرف به مضار المال الذي لم يكتسب من حله ولم يرد منه حتى الله هكذا عد هذين الاثنين اعني الامن والخصب بانفرادهما من اسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وانا ارى انها ثمرة العدل ونتيجته لا لزوم لعددهما سببين .

والسادس امل فسبح يدعو الانسان الى اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه فلولوا من الاخير ينتفع بما انشاء الاول حتى يستغني به لافتقر اهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وغيرها من اراضي الحرث واشجار الثمر وذلك لا تنسع له اعمارهم فلذلك من الله تعالى على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم صلاحها وصارت ننتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما ابقاه الاول من مآربها ويرم الثالث ما احداثه الثاني من شعنها لتكون احوالها مدى الاعصار ملتئمة امورها منتظمة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضروري لوقتته ولكانت ننتقل الى من بعده باسوء حال حتى لا ينمو فيها نبت ولا يكن فيها البث فعلى الناس جميعاً ان يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والسعي في استجلاب الخيرات ودفع المضرات كل على مقدار طاقته فالخلق عيال الله واحب خلقه اليه انفعهم بباده وخير الناس انفعهم للناس وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل ان الانزواء عن خلق اسلم لدينه مع كونه قادراً على الاختلاط بهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر حسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزيل ومن كان كذلك فهو كل على الهيئة الاجتماعية

وعضوا اشل فيها ايظن هذا وامثاله ان عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلاة فقط كلا بل العمل الصالح اعم من ذلك يبتديء باماطة الاذى عن الطريق وسقي الماء ولو على الماء ونظارة البساتين ورعي المواشي ويترقى الى فك الاسير واغاثة المهوف والاعانة بالفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو افضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ما روى عن انس بن مالك رضي الله عنه انه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجاً فكننا اذا نزلنا منزلاً لم ينزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم ينزل يذكر الله حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم خير منه .

والخلاصة ان كل من عرف شيئاً فيه نفع للبيئة الاجتماعية مادياً او ادبياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح واخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الانساني بل الدنيا باسرها لانه انتفع منها بالمال كل والملبس والمسكن ولم يؤد عن ذلك عوضاً .

على ان التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورثان البلب كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير من المتوغلين فيها فاتاه يوماً عطاءؤه وهو في المسجد فقام الى منزله ونسيه فلما صار الى منزله وذكره بعث رسولاً لياًتيه به فقال له واين نجد ذلك المال بعد ان تركته فقال سبحان الله او يأخذ احد ما ليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلان حتى مات وقال اكره ان اتخذ نعلان فاعل رجلاً يسرقها فيأثم وقال الجاحظ ان الخلفاء والائمة افضل من الرعية وسامة الحكام افضل من المحكوم عليهم ولهم لا ينهم اقوم بالحقوق وارد على الناس وعلمهم بهذا افضل من عبادة العباد لان نفع هؤلاء لا يبعدو قم رؤسهم ونفع اولئك يخص ويعم والعبادة لا تورث البلب الا لمن اكثر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة اهل المعرفة فمن هناك صاروا بلهاً حتى صار لا يجي من اعبدهم حاكم ولا امام .

واما ما يصلح به حال الانسان وحده فتلاثة اشياء (١) نفس مطيعة تأتمر بالارشاد وننتهي عن الغي (٢) والفة جامعة تتعطف عليها القلوب ويندفع بها المكروه وكفاية من العيش تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فاما الاولى وهي النفس المطيعة فانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته فاهلكته لانها كما قال تعالى (امارة بالسوء)

ولسنا الآن بصدد بيان وصول النفس الى تلك الرتبة العلية فانه علم تكفلت ببيانه الشرائع وافرد بالتأليف .

واما الثانية وهي الالفه الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن ألفاً مألوفاً تحفظته ايدي الحاسدين وتحكمت فيه اهواء الاعداء . واذا كان ألفاً مألوفاً انتصر بالالفه على اعدائه وامتنع من حاسديه ولذلك قيل المرء كثير باخيه وقال قيس بن عاصم :
ان القدامح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش ايد
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للتهبد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة او يد الله اي قدرته مع الجماعة ومن كان الله معه فلا يعجزه شيء . الم تروا ان جماعة تضامت بالمعاونة فقامت الجبال الشم بهممها وجعلت البحر براً مع بعد غوره وطوت السنين في ايام معدودة وافهمت من في المشرق كلام من في المغرب فكم بالجماعة من تنق فتح وجدول اسيل وسدّ نصب وطريق حديد مدّ وخط يرقى سحب كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعملها الجد في خدمة المجتمع الانساني ولو كان علم الشرقيين تاماً لما تركوا غيرهم يسبقهم الى تلك الخدمة الجليلة التي غزرت منافعها الادبية والمادية والاسف كل الاسف على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزانته مملوءة بالنقود ولا ينتفع بها ويرى غيره يفتحها ويصرف منها وهو ساكن ساكن واذا كانت الالفه تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر اسبابها وهي خمسة (١) الدين (٢) النسب اي القرابة (٣) المصاهرة (٤) المودة (٥) البر . اما الدين وهو الاول من اسباب الالفه فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابير . واما النسب ثانيها فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفه ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم وللنسب درجات متفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عطفاً من درجة البنوة والعصابات اعظم انفة وغيره من ذوي الارحام والتوسع في بيان ذلك يخرجنا عن الايجاز المطلوب . واما المصاهرة ثالثها فلانها مواصلة صدرت عن رغبة واختيار وانعقدت على خير واثار فاجتمع فيها اسباب الالفه ومواد المناصرة . واما المؤاخاة بالمودة رابعها فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصاً ومصافاة فيحدث بذلك وفاء

ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه
 لتزبد الفتيهم ويقوى تضافرهم ونناصرهم وهنا كان يجب ان تنبه على شروط الاخاء
 وحقوقه لو كان في الوقت متسع . واما البر خامسها فلانه يوصل الى القلوب محبة ويثنيها
 انعطافاً فكم من عدو صار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ندب الله تعالى الى التمازن عليه
 وقرنه بتقواه فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) لان في التقوى رضا الله تعالى
 وفي البر رضا الناس ومن جمع بينهما فقد تمت سعادته وعمت نعمة . ثم ان البر نوعان جود
 ومعروف فالجود بذل المال في الجهات المحموده لغير غرض مطلوب والباعث عليه
 سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند
 الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة . واما قول من قال الجود بذل الموجود فجعل
 بمحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف وجود ولا للتبذير موضع
 وقد ورد الكتاب بدمهما واذا كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حده سمي
 كريماً ومن قصر عنه كان بخيلاً .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر
 والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بنيه : بني ان البر شيئين
 رحمة طليق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان
 ملتقماً مذموماً وان توسط فيه كان معروفاً وبراً محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد
 بالنفس والمال بالمعونة في الثأبة وهذا يعثر عليه حب الخير للناس واثثار الصلاح لهم
 وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي آخر القواعد فلأن حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واذا عدم
 المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر عليه شيء منها لحقه
 من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر عليه منها لان كل قائم بغيره
 يكمل بكامله ويختل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج الكل اليها
 فقدت من غير طلب وعدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب
 متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها
 حتي لا يجندعوا على سبب واحد فلا يأتلفون ويشتركون في جهة واحدة فلا يكتفون .

ثم هداهم اليها بعقولهم وامياهم حتى لا يتكفروا الائتلاف في المعاش المختلفة فيعجزوا .
ثم ان الله تعالى جعل قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين :
بمادة وكسب . اما المادة فهي حادثة عن انتماء اصول نامية بذواتها وهي شيئان :
نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف
المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين ثقل في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب
المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح
تجارة وكسب صناعة فمن خرج عنها كان كلاً على اربابها .

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم نفعاً ولذلك
ضرب الله تعالى به المثل فقال (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت
سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وقال صلى الله عليه وسلم : (التمسوا الرزق في خبايا
الارض) وقال كسرى الموبد ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة
الا ان تكون مطرة في نيسان . واختلف الناس في نفع زيل الزرع اذ الشجر بما لا يتسع
الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية نتاج الحيوان وهو مادة اهل الفلوات وسكان
الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار افتقروا الى الاموال المتنقلة معهم وما لا ينقطع
نماؤه بالظعن والرحلة فاتقنوا ما يستقل في الثقله بنفسه ويستغني عن العلوفه برعيه وهو
الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقله مؤنته وتسهيل
الكلفة به وجدوا عليهم اكثر بنسله ورسله الهاماً من الله تعالى لخالقه في تعديل المصالح
فيهم وارشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة فهي فرع لما دقي الزرع والنتاج وهي
نوعان ثقل في الحضر من غير نقلة ولا سفر والثاني ثقل بالمال في الاسفار والاول
قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطراً واما الصناعة فقد تعلق بما مضى
من الاسباب الثلاثة ونقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فيسخر وصناعة عمل وصناعة
مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتقسم الى قسمين احدهما ما وقف على
التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي
الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وهذه هي الوظائف
التي يقوم بها اولو العلم كالقضاة والاطباء وغيرهم .

واما صناعة العمل فتتقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل بييمي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معانة في تعلمه وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة كذوي صنعة الجمالة واستخراج الحجارة .
واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتتقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب والعمل تبعاً كالكتابة . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في اربئاد مواردكم ووكلمهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين همهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لالفتهم فسبحان من نفرد بلطف حكمته واظهر فطننا بعزائم قدرته هذا واني وان اطلت فقد بقي من مئتمات هذا البحث شيء كثير ربما اعود اليه اذا عادت لي النوبة في هذا الموقف والسلام عليكم .

صعيد الكرمي